

المنهج الإصلاحى عند الشيخ سيدى عبد القادر بن محمد السماحي من خلال منظومة

الياقوتة ورسالته إلى الأمير السعدي زيدان بن أحمد الذهبي (1016 هـ/1607م)

The Reformist Approach by Sheikh Sidi Abd-el-Kader Ben Mohammed. Based on his poem "Al-Yaqouta" and his famous letter to the Saadi prince Zaydan Ben Ahmed Al-Dhahabi (1016 AH/1607 AD).

أ.د موسى هوارى جامعة الجزائر 2 أبو القاسم سعد الله

البريد الإلكتروني: moussa.houari@univ-alger2.dz

تاريخ الاستلام: 2025 / 04 / 06 تاريخ القبول: 2025 / 05 / 10 تاريخ النشر: 2025 / 06 / 03

Abstract:

This article discusses a prominent Algerian Sufi figure, the mujahid and reformer Sheikh Sidi Abdelkader Ben Mohammed, who died in 1025 AH/1616 AD. He was one of the most influential figures during his lifetime and after his death. Especially since he witnessed a difficult period that the Islamic Maghreb went through, represented by the beginning of the Ottoman presence in Algeria, the fall of Andalusia, and the attacks of the Spaniards and Portuguese on the coasts of the Maghreb.

This article focuses on the reform project of Sheikh Sidi Abdelkader Ben Mohammed, through two important documents: his famous poem, Al-Yaqouta, and a letter written by the Sheikh and sent to the Saadi prince Zaydan Ben Ahmed Al-Dhahabi (1016 AH/1607 AD). This article will attempt to focus on the desire for internal reform on the part of Sufi sheikhs.

Keywords:

Sufi reform, Sufism, Sidi Sheikh, Shaykhiyya, Abd al-Qadir ibn Muhammad, al-Yaqouta

المخلص:

يتناول هذا المقال شخصيةً صوفيةً جزائريةً كبيرةً، وهي شخصية الشيخ المجاهد والمصلح سيدى عبد القادر بن محمد، المتوفى سنة 1025 هـ/1616 م، وهو أحد أكثر الشخصيات الجزائرية تأثيراً في حياته وبعد وفاته، خاصةً وأنه عاصر فترةً عصيبةً مرَّ بها المغرب الإسلامي، تمثلت في بداية التواجد العثماني في الجزائر، وسقوط الأندلس، وهجمات الإسبان والبرتغاليين على سواحل بلاد المغرب، ويركز هذا المقال على المشروع الإصلاحى للشيخ سيدى عبد القادر بن محمد، من خلال وثيقتين مهمتين وهما منظومته الشهيرة الياقوتة، ورسالة نثرية كتبها الشيخ وأرسلها إلى الأمير السعدي زيدان بن أحمد الذهبي (1016 هـ/1607 م)، سيحاول هذا المقال ان يركز على الرغبة في الإصلاح الداخلى من طرف شيوخ التصوف.

الكلمات المفتاحية:

الإصلاح ، الصوفية ، سيدى الشيخ ، الشيخية، عبد القادر بن محمد، الياقوتة

مقدمة:

ذكر لفظ «الإصلاح» في القرآن والسنة، قال الله تعالى على لسان سيدنا شعيب عليه السلام: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَكُمْ إِلَى مَا أَنهَاكُمْ عَنْهُ وَمَا تُؤْفِكُنِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾¹، فالإصلاح وظيفة الأنبياء عليهم السلام، وهو واجب شرعي، وفريضة على كل مسلم، وتزداد أهمية الإصلاح والحاجة إليه عندما تعرف المجتمعات الإسلامية تدهوراً وضعفاً، وتراجعا أخلاقياً، فيصبح وقتها الإصلاح ضرورة ملحة، وهو على العلماء الربانيين أشد وجوباً، والتصوف الحقيقي في جوهره هو دعوة للإصلاح، وليس كما يُروَّج عنه بأنه دعوة للخمول والكسل، فقد شاع بين الناس أن المتصوف شخصٌ منعزلٌ بعيدٌ عن قضايا المجتمع، حتى أصبح البعض يظن أن الجمع بين التصوف والإصلاح، يُعدّ أمراً غريباً، فالتصوف يهدف إلى إصلاح القلب والفكر، وإصلاح السلوك، والسمو بالنفس والترفع عن الرذائل، ابتغاء الرقيّ بالإنسان إلى مستوى أخلاقي رفيع، وهو يسعى إلى نقل الإنسان إلى مرحلة أعلى، وهي مرحلة المثل العليا.

أولاً/ الشيخ عبد القادر بن محمد السماحي وعصره:

والشيخ عبد القادر بن محمد رضي الله عنه، أحد المشايخ الذين كان الإصلاح شغلهم الشاغل، خاصةً وأنه عاصر فترةً عصيبةً مر بها المغرب الإسلامي، حيث ولد -رحمه الله- سنة (940 هـ/ 1533م، وتوفي رحمه الله سنة 1025هـ/ 1616م)²، خاصةً بعد سقوط الأندلس، وهجمات الإسبان وسيطرتهم على مدن سواحل بلاد المغرب، وقد صاحب هذا حالةً من الاضطراب النفسي، والفوضى

المجتمعية والفساد الأخلاقي، وقد بلغ الغزو البرتغالي، والاسباني للشواطئ المغربية ذروته في العقدين الأولين من القرن 16م/ 10هـ، حيث قام الاسبان باحتلال مدينة مليلة في سنة 1497، ثم احتلوا حجر بادس في سنة 1508، واحتلوا مواقع عديدة على الشواطئ الجزائرية خلال الفترة الممتدة بين سنتي (1505-1535) وقد خلف هذا حالة من اليأس والخوف والقنوط.

كما عرف هذا العصر بداية التواجد العثماني في الجزائر، حيث رغب العثمانيون في التوسع غرباً بعد أن دخلوا مدينة الجزائر 1518م، وحاولوا السيطرة على المغرب الأقصى وضمه إلى حضن الدولة العثمانية³، وقد ساهم التنافس السعدي العثماني في إضعاف المسلمين، وإشغالهم عن الجهاد، مما زاد في تقوية جانب النصارى الإسبان والبرتغاليين، أما الدولة السعدية في المغرب الأقصى فقد عرفت حالة من الاضطراب والفوضى بعد وفاة، السلطان أحمد المنصور الذهبي السعدي سنة 1012-1603م⁴، حيث دخلت الدولة في مرحلة الضعف، واختلف أبناؤه الثلاث على السلطة، وهم أبو عبد الله محمد الشيخ المأمون، وأبو فارس عبد الله الوائق، وزيدان الناصر⁵، كما ثار ضدهم أيضا الشيخ أحمد ابن أبي محلي (ت. 1021هـ/1612م)⁶، وهكذا ساهمت هذه الأحداث مجتمعة في تراجع الحالة الأمنية ببلاد المغرب، خاصة في منطقة الجنوب الغربي الجزائري، فقد أصبحت هذه المنطقة خلال هذه الفترة في قلب هذا الصراع، وهي المحاطة بالعثمانيين من الشمال الشرقي والسعديين من الغرب والإسبان من الشمال، وكثرت الخلافات بين القبائل، وعمت حالة اللأمن في دواخل المغرب وصحاريه، وفي هذه الظروف ظهرت شخصية الشيخ

عبد القادر بن محمد السماحي -رحمه الله-، وهو الشيخ الرباني العالم العابد، الذي يحمل هموم أمته، ويرغب في إصلاح أحوالها.

لم يكن سيدي الشيخ صوفيا يعتزل محيطه، ولم يكن منكفئاً على الخلوة والعبادة فقط، بل كان مثالا للصوفي الحقيقي الذي جمع بين الزهد والعبادة والعمل، ومخالطة الناس والصبر على أذاهم، وقد مارس الشيخ التربية الروحية، والإصلاح الاجتماعي، مقتفياً أثر شيوخه، وهو الذي عرف عنه تنقله في البلاد ومخالطته للبسطاء من الناس، فقد كان سيدي الشيخ كثير التنقل إما لزيارة شيخه حال حياته، أو لزيارة أبناء شيخه بزاويته في السهلي بعد وفاته، كما كان يرتحل بزاويته المتنقلة بين القبائل لنشر دعوته، أو تلبية لطلب القبائل التي كانت تستضيفه تبركا به، أو للأخذ عنه، أو تدعوه للإصلاح بينها⁷، لقد أفاده تنقله هذا في معرفة محيطه، ومعاينة أمراض مجتمعه، والقرب من الناس والاحساس بمشاكلهم، لهذا كان سيدي الشيخ باعتباره عالماً عابداً، وولياً صالحاً، يشعر بمسؤولية كبيرة اتجاه مجتمعه، وفي هذا يقول الشيخ في الباقوتة:

لقد شهد المولى بأني نصيحكم...وأني على نصيحٍ جدير بخبرة⁸

فهو يصرح في هذا البيت بمدى حرصه على النصيح، ويوضح أن لديه من الخبرة والمعرفة بأحوال الناس ما يؤهله للقيام بواجب النصيحة، وقد اجتهد في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفي هذا يقول عنه تلميذه أبو العباس أحمد بن عبد الرحمن بن بودي، في قصيدته المسماة: "روضة الأحران، ومهجة قلوب الإخوان، لتعلم كيف قتل قطب الزمان، شيخنا وقودتنا، نجل أبي داود سليمان":

يقوم بجد واجتهاد تفكر... صلاة و صيام وحسن تلاوة

وأمر بمعروف ونهي عن ضده .. يجافي بجنبه فراش البطالة⁹

كما مارس الشيخ فضيلة الإصلاح بين المتخاصمين من القبائل الصحراوية التي بلغت الشحنةاء بينها حدا لا يطاق فكان الشيخ رضي الله عنه يطفئ نار الفتنة ويجمع الكلمة، وكان الإصلاح بين الناس شغل الشيخ الشاغل وهمه الأكبر، فقد كان ينتقل بين تيقورارين وتوات، ويصل إلى جبل بني يزناسن للصالح بين قبائل خراجة(الخراج)¹⁰، وفي هذا يقول أبو العباس أحمد بن عبد الرحمن بن بودي، في قصيدته الروضة:

ومن لي بإصلاح قبائل فتنة ... إذا أضرمت نار لقتل السفاهة

ومن يأمر الأعراب ثم الأعاجم ... بإصلاح ذات البين عن شأن فتنة¹¹

إضافةً إلى هذا، كان الشيخ مجاهداً ضد غزوات الكفار، فشارك في الجهاد وحث عليه، وقد كانت وفاته رضي الله عنه، بسبب جراحاته من جهاده¹²، فقد شهد عدة معارك بثغور وهران ومليلة وغيرهما، كما كانت له علاقات وطيدة بالمجاهدين في أقطار المغرب، فتذكر المصادر أنّ الشيخ المجاهد الحاج سالم بن علي الشنيطي التونسي قدم عليه زائراً، ومستشيراً في أمر الجهاد، فوجد الشيخ عبد القادر بن محمد -رحمه الله- يحثه على الجهاد ويشجعه عليه، فيعود الحاج سالم إلى الشواطئ التونسية، ويشارك في الجهاد، ثم يكتب إلى سيدي الشيخ يخبره بغزواته وانتصاراته¹³، والمستنتج مما سبق أن الشيخ -رحمه الله- كان يشارك في الجهاد يأمر به ويحث عليه.

ووقف سيدي الشيخ عبد القادر بن محمد السماحي نفسه، لمساعدة المحتاج، وإطعام الجائع، وإيواء الفقير وعابر السبيل، وقد ذكر ابن بودي بعض مآثره في الروضة حيث قال:

فما لليتامى من ملاذ بعيدة ... وما للناس من ملجأ كالعصابة
ومن للسائلين مجيبا دعاءهم ... وللفقراء من يقوم بحاجة
ومن للأرامل وإطعام جائع ... لباس عراة بعد شيخ الزعامة
لحجاج بيت الله يأتي تبسما ... ويظهر بشره وعند السقاية¹⁴

ثانياً / قصيدة الياقوتة ورسالة الشيخ إلى الأمير زيدان:

1- الياقوتة:

وتسمى كذلك بسلسلة المشائخ الذهبية"، وهي أهم ما ترك الشيخ عبد القادر بن محمد السماحي، وهي قصيدة من 178 بيت¹⁵، من البحر الطويل رويها التاء المكسورة، كتبها سيدي الشيخ بمنطقة "العافر"، الواقعة ناحية المشية بالجزائر الحبيبة عندما كان معتكفاً بخلوته هناك¹⁶، جمع فيها بين قواعد التزكية والسلوك، وشروط الصحبة، ووصف تجربته الروحية والذوقية، ودعمها بسنده الصوفي، ونافح فيها عن منهج أهل التصوف والعرفان، ورد شهادات منتقديه بدون تجريح، وقد تضمنت هذه القصائد تعليمات وإرشادات على المريد اتباعها، وهي تهدف إلى تربية الإنسان المسلم وتهذيبه.

2- الرسالة:

أما النص الثاني الذي تعتمد عليه هذه الدراسة، فهي رسالة بعثها الشيخ عبد القادر بن محمد "سيدي الشيخ"، في أوائل ربيع الثاني عام ستة عشر وألف (1016) موافق نحو جويلية 1607م، إلى السلطان السعدي، أبي المعالي زيدان بن أحمد المنصور الذهبي السعدي، الذي بوبع له بعد وفاة والده عام 1012-1603م، بمدينة فاس، (توفي عام 1037هـ/ 1627م ودفن بمراكش)، وهي في الحقيقة رد على رسالة السلطان بخصوص مشروعية الذكر، وجواز اتخاذ شيخا له في التصوف السني¹⁷.

ثالثاً / أسس منهج الإصلاح عند الشيخ سيدى عبد القادر بن محمد:

مارس الشيخ الإصلاح في حياته، وقد تواترت الأخبار في المصادر بأعماله الجليلة من نصح وإصلاح ذات البين وإجارة وإغاثة وجهاد، لكن هذه المصادر لم تذكر ما هي المعالم الأساسية لمنهج الشيخ، وبالعودة إلى نصين مهمين كتبهما الشيخ في حياته حاولنا تتبع بعض معالم هذا المنهج، لقد كان سيدي الشيخ صاحب منهج عرفاني إصلاحى وتربوي خاص به، وإن كان لا يبتعد كثيراً عن منهج مشايخه الذين لا يفتأ يذكرهم ويثني عليهم، وهو لا يخرج عن الأطر التي حددها المنهج النبوي، ويمكن أن نستخلص أهم قواعد المنهج الشيخى في الإصلاح، وسنتبع في عرض قواعد منهجه نفس الترتيب الذي اعتمده في قصيدته: "الياقوتة"، حيث ويقوم منهج الشيخ سيدى عبد القادر بن محمد، على الأسس التالية:

1- المنهج النبوي:

منهج الشيخ سيدى عبد القادر بن محمد منهجٌ مرتبطٌ بالمنهج النبوي، وهذا ما كان يحصر على أن يُدْكَر به في كل موقفٍ سواء في قصيدة الياقوتة، أو في

الرّسالة التي ردّها على سؤال الأمير السعدي زيدان، حيث ضمن إجابته للأمير زيدان بالكثير من الأحاديث النبوية الشريفة، وكان يستدل في كل مرة بواحد منها، ليبين أن منهجه هو منهج النبي الكريم صلى الله عليه وسلم.

أما في الياقوتة فقد أصّل الشيخ لمنهجه التربوي الإصلاحي، وربطه بالنبي الكريم صلى الله عليه وسلم، عن طريق ذكره لشيوخه وشيوخهم رضي الله عنهم، وهو سند متصل بالرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، حيث يقول

سلكت طريقاً لم يطأها خلافتنا ... ولم يسلكها غيرنا من خليفة

سوى سلف لنا قفونا آثارهم وهم قدوتي من الشيوخ الأجلة¹⁸.

وهذا الارتباط ليس خاصاً بالشيخ سيدي عبد القادر بن محمد وحده، بل بالصوفية الربانيين جميعهم، فلا تصوف دون الاتباع للنبي الكريم، يقول الإمام الجنيد رضي الله عنه (ت 298هـ / 910م): «الطرق كلّها مسدودة على الخلق إلا من اقتفى أثر الرسول وتبع ولزم طريقته، فإنّ طرق الخيرات كلّها مفتوحة عليه»¹⁹.

2- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

ومن الأسس المهمة للإصلاح عند الشيخ سيدي عبد القادر بن محمد رضي الله عنه، بعد الإيمان بالله تعالى وتوحيده، هو: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد قال في ياقوته موضحاً معالم منهجه التربوي الإصلاحي:

ونصح لدين الله ثم رسوله ... وخاصته والمؤمنين بجملة²⁰

فالعارف بالله يجب عليه أن يكون ناصحاً أميناً، ولا يسكت عن الحق ولا يخشى فيه لومة لائم، ففعل الخير وإن كان محموداً، لا يكفي وحده، مالم يصاحبه، الأمر بفعل الخير، والنهي عن فعل المنكرات، وفي هذا يقول سيدي الشيخ رضي الله عنه، في

الرسالة التي بعثها إلى الأمير زيدان السعدي، شارحاً ما يجب على المريد : (ويكون يأمر بالخير بعد فعله، وأن يقوم بحق الله عليه في وجوب وقته إذ حسنت الأبرار سيئات المقربين²¹)، وإن كان هذا ما يطلبه من المريد فهو من الشيخ أشد مطلوباً، ونتائج الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على المجتمع كبيرة ولا تخفى على أحد، وهذا ما يجعل المنهج الشيخى منهجاً إصلاحياً.

3- أهمية العلم:

ينتقل الشيخ رحمه الله في ياقوته بعد ذلك للتأكيد على أهمية العلم، باعتباره أهم مفاتيح الخير، فالعلم بالنسبة له ضرورة لإصلاح النفس وبلوغ المراتب والعلو، فيقول عن وجوب العلم:

فهذي فصولها وشرط كمالها ... منوط بعلم ثم حلم وحكمة²²
لكن الشيخ يرى بأن الخير لا يُنال بالعلم وحده، ولا يُنال إلا بفضل الله، فالتوفيق والخير والهداية، هي مَنَّة من الله، وتفضل منه على العبد، حيث يقول في منظومته الشهيرة "الياقوتة":

وذلك كله بفضل إلهنا... ينال بمن لا بكِدٍ و حيلة²³

4- ذكر الله تعالى:

لذلك يؤكد الشيخ عبد القادر بن محمد السماحي -رحمه الله-، على أهمية ذكر الله تعالى ، لأن ذكر الله -حسب سيدى الشيخ- أفضل العبادات وأكملها، فالذكر عنده وسيلة للسمو، وهو ذو أثر في تحسين فهم الإنسان، والمثير للانتباه أن الشيخ يعتبر ذكر الله تعالى أفضل للعبد من العلم، وهو يقول في الرسالة التي ردَّ بها على سؤال الأمير زيدان:

(ولولا ذلك لكان كثير من العلم أفضل من الذكر، لقوله تعالى : فاذكروا الله قياما وقعودا وعلى جنوبكم)²⁴.

وقد خصص أبياتاً كثيرة من منظومته الياقوتة للحديث عن ذكر الله تعالى وفضله، يقول سيدي الشيخ رضي الله عن الذكر في الياقوتة :

وأي طبيب للقلوب من العى... أظب من الذكر القوي الإشارة

وأي معد للذنوب ومحوها.... أشد من إسم ذي الصفات الجليلة

وما الحج والجهاد من غير فرضنا... بأفضل من ذكر الأسماء العظيمة

بل الذكر أولى ثم أقوى لا سيما... إذا إستشعر القلب النعوت الحميدة²⁵

وهو يستند في أولوية الذكر على غيره بالأحاديث الشريفة حيث يقول:

بذا صدع المختار أعني نبينا... وصح بنقل في الآثار الصحيحة²⁶

وقد قال رضي الله عنه في الرسالة: (والذكر يطلق ويراد به ذكر اللسان، ويطلق ويراد به ذكر القلب، ويطلق ويراد به ذكر الروح، ويطلق ويراد به ذكر السر، ويطلق ويراد به ذكر سر السر، والذكر أفضل الأعمال لقوله سبحانه " ولذكر الله أكبر" العنكبوت .) وقال أيضاً: (فإذا إتصل الذكر بغايات الذكر كان مانعاً من الإصرار، حتى لا يكون له مع الذنب والعيب قرار)²⁷.

5- التحذير من الذنوب والمعاصي:

ولا يخلو المنهج الشيعي من التحذير من الذنوب والمعاصي الكبيرة، كالغيبة والنميمة، والفسوق، أو حتى تلك التي قد تبدو هينة، ويستسهلها الكثيرون، فهي في نظر الشيخ تُبعد النفس عن الارتقاء والسمو، وقد حذر منها جميعها، مثل عدم الامتثال لأوامر الله عز وجل، وعدم تجنب ما حرمه، بل ذهب حتى إلى التحذير من

الإقبال على الدنيا والحرص عليها، مثل الإسراف في الطعام والشراب، والكسل والخمول وغيرها، حيث يقول في الياقوتة:

أم كيف رضاء الله يدركه الذي ... يساخط ربه ويرضي الخليفة
أم كيف لمغتاب الورى ذي نميمة ... يموت شهيدا أو على خير ملة
أم كيف لمسرف الطعام وشربه ... يذوق مذاقا أو يفوز بشمة
كذا من عرف بالفسوق ونحوها... يجازى بفعله القبيح ولعنة
فلم يمتثل أمرا ولم يجتنب نهيا... ولم يذكر المولى خبيث السريرة
حريص على دنياه لاه أكثر ... مناع للخير معتد ذو عتلة
ككيف يكون للعلوم مناسبا... أخو الكسل والتفريط في خير خلة²⁸

ويظهر في هذه الأبيات شخصية المربي والداعية الحريص على حدود الله، الراغب في الرفع من قيمة الإنسان وإبعاده عن الدنيا، ليكون فردا صالحا في مجتمع سليم، وفي نفس المعنى يقول مرغبا في أكل الحلال، وتعظيم حرمان الله:

وتطبيب لقمة وتعظيم حرمة... وشكر لنعمة ورفع لهمة²⁹
ويقول في الرسالة محذرا من الذنوب والمعاصي (وكما أنه لا يطلع على
الضمائر والسريرة من لم يكف نفسه عن الغيبة والنميمة، ولا يطلع على سر الأسرار
من في قلبه ذرة من الإستكبار، ولا يطلع على سر الإحساس من في قلبه شيء من
الشك والوسواس، ولا يطلع على الأسرار من في قلبه ذرة من الهتان، ولا يطلع على
مقامات الأولياء من في قلبه ذرة من حب الدنيا، فهمة أهل الدنيا دنياهم وهمة أهل
الآخرة آخراهم)³⁰.

- ومع التحذير من الذنوب والمعاصي حث الشيخ -رحمه الله-، على العمل الصالح، وفعل الخيرات، وتحمل الأذى والمشقة في سبيل ذلك، حيث يقول في موضع آخر من الياقوتة:

وكف الأذى وحمله والتصبر... ولا تهمل الرضى بأدنى المصيبة
وزهد وتسليم وعفو وعفة ... وتفويض أمر والشهود لمنه
وجد قوي واجتهاد موافق ... وصوم وسهر ثم صمت وعزلة³¹

6- التوبة إلى الله وتجديدها:

ومن أصول منهج الشيخ سيدي عبد القادر بن محمد -رحمه الله-، التوبة الدائمة وتجديدها باستمرار، لذلك كان الشيخ يشدد على التوبة لمن أراد إصلاح حاله، ويجعلها بداية للطريق، يقول الشيخ رحمه الله عن التوبة في الياقوتة في شرح نهج الطريقة :

بدايتها للغافلين بتوبة... وأشراتها محصورة بالتثبت³²
فالذنوب مانعةٌ لتحصيل الخير كل الخير، وهي جالبةٌ لغضب الرب عز وجل، لذلك على المريد أن يجدد توبته باستمرار، ويستغفر ربه دائماً، ويعزم على عدم العودة إلى المعصية، وقد حدد الشيخ -رحمه الله- للتوبة قواعدها وربطها بأفعالٍ وأقوالٍ واعتقاداتٍ خاصةٍ، وعن هذا الباب يقول في الرسالة إلى الأمير زيدان: (... ثم يغتسل وينوي أنه خرج عما كان فيه من سوء أحواله وأقواله وأفعاله، ويجتنب الأشرار، ويلزم صُحبة الأخيار، وصوم ما أمكنه من النهار، والركوع

والسجود في الأسحار، ويجدد التوبة النصوح مع الاستغفار أثناء الليل وأطراف النهار،
توبة تزيل الإصرار³³.

7- الصُّحبة:

ومن النقاط التي يشدد عليها الشيخ سيدى عبد القادر بن محمد السماحي -رحمه
الله- هي: الصحبة، حيث يقول في الياقوتة:

وأي سلوكٍ كاملٍ دون صحبةٍ؟ ... وأي إهداءٍ شاملٍ دون منحة؟³⁴

والصُّحبة التي قصدها الشيخ هي بطبيعة الحال، هي صُحبة الشيخ العارف
بالطريقة أو الولي الصالح، وهو الأمر الذي يشدد عليه العلماء العارفون دائماً حيث
يقول الشيخ الفقيه أبو محمد عبد الواحد بن عاشر المتوفى سنة
(1040هـ/1631م)، في متنه الشهير:

يصحب شيخاً عارف المسالك... يقيه في طريقه المهالك

يُذكره الله إذا رآه ... ويوصل العبد إلى مولاه³⁵

وهو نفس المعنى الذي أكد عليه سيدى الشيخ -رحمه الله- في رسالته إلى
الأمير زيدان حيث قال: (وإصطلاح في السلوك مألوف، وإنما كانت الصحبة واللقاء،
فكان الأدنى منهم إذا لقي الأعلى إستفاد منه رواية، قال ابن العريف وغيره " كيف
يفلح من لم يخالط مفلحاً "³⁶).

واختيار الصاحب أمر ضروريّ لفلاح في الدنيا والآخرة، وهو من صمم
الدين، لقد جاء في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ

إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴿٣٧﴾، وروى الترمذي في سننه من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (الرجل على دين خليله، فليُنظر أحدكم مَنْ يخالل).

خاتمة:

يتضح مما سبق أن الشيخ سيدي عبد القادر بن محمد -رحمه الله-، كان صاحب منهجٍ إصلاحيٍّ، وصاحب رؤيةٍ للنهوض بالمجتمع وإصلاحه وتحسين أحواله، وإن كان منهجه لا يبتعد كثيراً عن منهج مشايخه الذين سبقوه، والذين لا يفتأ يذكرهم ويثني عليهم، لكنه منهج له خصوصيته، لأنَّ الشيخ -رحمه الله- قد تنقل في البلاد وخالط الناس -كما سبق وأشرنا-، ويقوم منهج الشيخ سيدي عبد القادر بن محمد، على التمسك بالأخلاق الحميدة وتهذيب النفس وعدم الانسياق وراء الملذات، لكن منهجٌ مرتبطٌ بالمنهج النبوي وكان يحصر على أن يُذكر بذلك في كل موقفٍ سواء في الياقوتة، أو في الرسالة، ويُؤصل الشيخ لارتباط منهجه التربوي الإصلاحي بالنبي الكريم صلى الله عليه وسلم، عن طريق ذكره لشيوخه وشيوخهم رضي الله عنهم، وهو سند متصل بالرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، وأساس الإصلاح عند الشيخ سيدي عبد القادر بن محمد رضي الله عنه، هو الإيمان بالله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مع التأكيد على أهمية العلم، فالعلم بالنسبة له ضرورةٌ لإصلاح النفس وبلوغ المراتب والعلو، لكنه يربط العلم بالذكر حيث يعتبر أن ذكر الله أفضل العبادات وأكملها، فالذكر عند الشيخ وسيلة للسمو، وهو ذو أثر في تحسين فهم الإنسان، ولا يخلو المنهج الشيعي من التحذير من بعض الممارسات التي قد تبدو هينة لكنها في نظر الشيخ تُبعد النفس عن الارتقاء والسمو، مثل الإسراف في الطعام

والشراب، والحرص على الدنيا وملذاتها، والكسل والخمول وغيرها، لذلك كان الشيخ يُشدد على التوبة لمن أراد إصلاح حاله، فالذنوب مانعة لتحصيل الخير كل الخير، وقد حدد للتوبة قواعدها وربطها بأفعال وأقوال واعتقادات، والملاحظ أن الشيخ سيدى عبد القادر بن محمد السماحي -رحمه الله- كانت له نظرتة الخاصة التي اكتسبها من مخالطته للناس، وانفتاحه على المجتمع ومشاركته في الجهاد، وهذا ما جعل منهجه -رحمه الله- أقرب إلى الواقع، وأكثر تأثيراً من غيره من المناهج، فالشيخ لم يكن أبداً منعزلاً عن المجتمع كما يعتقد الكثيرون.

5. قائمة المراجع:

1. القرآن الكريم
2. ابن عاشر أبو محمد عبد الواحد: متن ابن عاشر، مكتبة القاهرة، جمهورية مصر العربية.
3. الإدريسي عبد الله حمادي: السلطان السجلماسي الفقيه الصوفي المفترى عليه الإمام أحمد بن أبي محلي مهدي وادي الساور (967هـ/1560م-1021هـ/1612م)، دار كوكب العلوم للنشر والطباعة والتوزيع، الجزائر 2019.
4. الأصفهاني أبو نعيم أحمد بن عبد الله الشافعي: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، دراسة وتحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط3، 1427هـ/2007م، ج.10.
5. بن خروف عمر: ملامح من الحياة الإقتصادية في المغرب في عهد السعديين، مجلة الدراسات التاريخية، قسم التاريخ، جامعة الجزائر، المجلد2، العدد1.
6. بن معمر محمد: قضية العرائش بين المطامع السياسية وظغوط العلماء (1019هـ/1610م)، مجلة إنسانيات، المجلد 7، العدد 20.
7. البوشيخي محمد بن الطيب: أولاد يدي الشيخ الشرفة والغربة التصوف والجهاد السياسية، مطبعة أطلال، وجدة، المملكة المغربية الطبعة الثانية 2013.
8. السكوني أحمد بن أبي بكر الشريف الفجيحي، تقوية إيمان المحبين -مناقب الشيخ سيدى عبد القادر بن محمد بن سليمان بن أبي سماعة، تحقيق طواهرية عبد الله، دار الأديب للنشر والتوزيع، وهران، 1991.

9. سيدي عبد القادر بن محمد السماحي: الياقوتة، مكتبة المعارف، تميمون، أدرار، الجزائر، د.ت.ط.
10. القدوري عبد المجيد: ابن أبي محلي الفقيه الثائر ورحلته الإصليّة الخريت، منشورات عكاظ، الرباط المملكة المغربية، طبعة 1991.
11. محمد بن معروف آل سيدي علي بوشنافة: تاج الياقوت وسر الناسوت شرح على ياقوتة الشيخ سيدي عبد القادر السماحي، تحقيق محمد بوزيان بن علي، مطبعة الجسور وجدة المملكة المغربية، طبعة 2009.
12. موساوي مجدوب ولد علي، عبد القادر بن محمد الولي الصالح -حياته وأثاره-، دار كوكب العلوم للنشر والطباعة والتوزيع، الجزائر، 1991.
13. نذير روابي محمد شبوب: استراتيجية الدولة العثمانية اتجاه المغرب الأقصى خلال عهد السلطان سليمان القانوني 1520-1566، مجلة الباحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلد 12، العدد 7.

7. الهوامش:

- ¹ القرآن الكريم : سورة هود، الآية: 88.
- ² الإدريسي عبد الله حمادي: السلطان السجلماسي الفقيه الصوفي المفترى عليه الإمام أحمد بن أبي محلي مهدي وادي الساور (967هـ/1560م-1021هـ/1612م)، دار كوكب العلوم للنشر والطباعة والتوزيع، الجزائر 2019، ج.1، ص 265 وما بعدها.
- ³ نذير روابي محمد شبوب: استراتيجية الدولة العثمانية اتجاه المغرب الأقصى خلال عهد السلطان سليمان القانوني 1520-1566، مجلة الباحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلد 12، العدد 7، ص 174 وما بعدها.
- ⁴ بن خروف عمر: ملامح من الحياة الإقتصادية في المغرب في عهد السعديين، مجلة الدراسات التاريخية، قسم التاريخ، جامعة الجزائر، المجلد 2، العدد 1، ص 68.
- ⁵ بن معمر محمد: قضية العرائش بين المطامع السياسية وظغوط العلماء (1019هـ/1610م)، مجلة إنسانيات، المجلد 7، العدد 20، 90.
- ⁶ حول ثورة ابن أبي محلي ضد السعديين أنظر : القدوري عبد المجيد: ابن أبي محلي الفقيه الثائر ورحلته الإصليّة الخريت، منشورات عكاظ، الرباط المملكة المغربية، طبعة 1991، ص 51 وما بعدها : الإدريسي عبد الله حمادي: المرجع السابق، ج.2، ص 138 وما بعدها.

- ⁷ البوشيخي محمد بن الطيب: أولاد يدي الشيخ الشرقة والغرابة التصوف والجهاد والسياسة، مطبعة أطلال، وجدة، المملكة المغربية الطبعة الثانية 2013، ص.34.
- ⁸ سيدى عبد القادر بن محمد السماحي: الياقوتة، مكتبة المعارف، تميمون، أدرار، الجزائر، د.ت.ط، ص.12.
- ⁹ أنظر قصيدة أبي العباس أحمد بن عبد الرحمن بن بودي في: السكوني أحمد بن أبي بكر الشريف الفجيجي، تقوية إيمان المحبين -مناقب الشيخ سيدى عبد القادر بن محمد بن سليمان بن أبي سماعة، تحقيق طواهرية عبد الله، دار الأديب للنشر والتوزيع، وهران، 1991، ص.187 وما بعدها؛ وانظر أيضاً: موساوي مجدوب ولد علي، عبد القادر بن محمد الولي الصالح -حياته وأثاره-، دار كوكب العلوم للنشر والطباعة والتوزيع، الجزائر، 1991، ص.250 وما بعدها.
- ¹⁰ البوشيخي محمد بن الطيب، المرجع السابق، ص.35.
- ¹¹ أنظر قصيدة أبي العباس أحمد بن عبد الرحمن بن بودي في: السكوني أحمد بن أبي بكر: الصدر السابق، ص.187 وما بعدها؛ وانظر أيضاً: موساوي مجدوب، المرجع السابق، ص.250 وما بعدها.
- ¹² محمد بن معروف آل سيدي علي بوشنافة: تاج الياقوت وسر الناسوت شرح على ياقوتة الشيخ سيدي عبد القادر السماحي، تحقيق محمد بوزيان بن علي، مطبعة الجسور وجدة المملكة المغربية، طبعة 2009، ص.19.
- ¹³ البوشيخي محمد الطيب: المرجع السابق، ص.37.
- ¹⁴ أنظر قصيدة أبي العباس أحمد بن عبد الرحمن بن بودي في: السكوني أحمد بن أبي بكر: الصدر السابق، ص.187 وما بعدها؛ وانظر أيضاً: موساوي مجدوب، المرجع السابق، ص.250 وما بعدها.
- ¹⁵ محمد بن معروف آل سيدي علي بوشنافة: تاج الياقوت وسر الناسوت شرح على ياقوتة الشيخ سيدي عبد القادر السماحي، تحقيق محمد بوزيان بن علي، مطبعة الجسور وجدة المملكة المغربية، طبعة 2009، ص.13.
- ¹⁶ البوشيخي محمد الطيب: المرجع السابق، ص.59.
- ¹⁷ نص الرسالة التي جاء فيها سؤال الأمير زيدان مفقود(أنظر: البوشيخي محمد الطيب: المرجع السابق، ص.65).
- ¹⁸ الياقوتة: ص.08.
- ¹⁹ الأصفهاني أبو نعيم أحمد بن عبد الله الشافعي: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، دراسة وتحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط3، 1427هـ/ 2007م، ج.10، ص.276.

²⁰ الياقوتة: ص.16.

²¹ أنظر نص الرسالة كاملا في موقع الطريقة الشيخية: <http://www.cheikhiyya.com/Kalamoho-Sidi-Abdelkader-Ben-Mohamed.php>

²² الياقوتة: ص.17.

²³ الياقوتة: ص.14.

²⁴ أنظر نص الرسالة كاملا في موقع الطريقة الشيخية: <http://www.cheikhiyya.com/Kalamoho-Sidi-Abdelkader-Ben-Mohamed.php> : القرآن الكريم: سورة النساء، الآية 103.

²⁵ الياقوتة: ص.11.

²⁶ الياقوتة: ص.12.

²⁷ أنظر الرسالة في موقع الطريقة الشيخية: <http://www.cheikhiyya.com/Kalamoho-Sidi-Abdelkader-Ben-Mohamed.php>

²⁸ الياقوتة: ص.13-14.

²⁹ الياقوتة: ص.16.

³⁰ أنظر نص الرسالة كاملا في موقع الطريقة الشيخية: <http://www.cheikhiyya.com/Kalamoho-Sidi-Abdelkader-Ben-Mohamed.php>

³¹ الياقوتة: ص.16.

³² الياقوتة: ص.16.

³³ أنظر نص الرسالة كاملا في موقع الطريقة الشيخية: <http://www.cheikhiyya.com/Kalamoho-Sidi-Abdelkader-Ben-Mohamed.php>

³⁴ الياقوتة: ص.12.

³⁵ ابن عاشر أبو محمد عبد الواحد: متن ابن عاشر، مكتبة القاهرةن جمهورية مصر العربية، ص.24.

³⁶ أنظر نص الرسالة كاملا في موقع الطريقة الشيخية: <http://www.cheikhiyya.com/Kalamoho-Sidi-Abdelkader-Ben-Mohamed.php>

³⁷ القرآن الكريم: سورة الزخرف، الآية:67.